

في الميَّاه

الراكِبة



تركت عيني تذهبان خلصة إليه، في الصف ونحن نودع باب
المدرسة الأخضر وفي (الأوتوكار) وأنا ألوح بيدي وأقول (باي)
ويوم لا أراه أركض إلى هيفاء لاهثة:

- أين جيل العائلة الميسورة؟

تقلب شفتيها

- هل تحببته؟

- لا.. أطمئن على الذي يجيني.

- لم يأت.. هل أعطيك رقم تلفونه؟

- هو عندي.

وأمشي..

أحسها ورائي، تضع يدها على كتفي وتهمس:

- لماذا أنت هكذا؟ تحببته نعم أم لا؟

- لا أعرف

(وكنت حقاً لا أعرف)

- كيف؟ ألا يخفق قلبك حين يمر؟

- لا.

وأبتعد: أسأل نفسي ما هو الحب؟ قلب يخفق، وجه،

عينان. إثنان = واحد، واحد = إثنان، أي شيء هو هذا الحب؟

جسدان، يدان، كلمات، رفقة درب؟ ولا أعرف.

* * *

لو أظل في المدرسة، ليل نهار، حين تشتعل الشمس وساعة ينفجر

لون الكاردينيا، أنام على المقاعد وأصحو مع رنين الجرس، لا

أروم الذهاب إلى البيت، العيون المنتظرة والصمت. حين

يطالعي وجه والدي، أرمي التحية ورأساً إلى غرفتي.

هل أحبها؟

الآن حين فاجأني وجهه، ذاك الذي أحببت، أريد أن أعترف.
القضبان والصمت والرأس إلى أسفل والعينان..
نقطتان على السطر.

الآن حين رأيت وجهه.

لقد ذهب كل شيء، النظرات وفناجين القهوة والضحكة
الطويلة والأصابع بعضها على بعض.

كلمات وحب.

أجلس وحيدة أفكر، لم أستطع أبداً أن أخربش صورة
للرجل، أريد أن أحبه ولم أحلم.

حين أغمض عيني.

أعانق الكتاب وأقف، وحيدة في زاوية الملعب، حائطان
وأنا والفتيات يتهايمن والنظرات خارج القضبان الحديدية،

هناك حيث الألعاب الحشنة ونظرات الصبيان والضجيج الذي
يملأ الفضاء.

- هلا

وتأخذني هيفاء إلى تحت شجرة التوت الخضراء.

- جاك يحبك وهذه الرسالة...

والمح شيئاً بين يديها فاتركها وأمشي.

تشدني إليها بقوة.

- لماذا أنت هكذا؟ إنه يحبك وميسور، وهذه الرسالة..

أركض إلى الزاوية، حائطان وأنا والفتيات يتهايمن، برية،
كأني قطعة برية ولا أبتسم.

أحاول أن أفهم لماذا فعلتُ هذا؟ الآن اسم جاك وليس
مهدداً؟ أنظر إلى هيفاء، لم أستطع أبداً أن أخربش صورة لصبي

أريد أن أحبه ولم أحلم حين أغمض عيني

كل يوم أطرح السؤال!

هل أكرهها؟

زواج وطلاق ثم زواج، أبواب وعتاب لا ينتهي، العمر الذي مضى، لو أبقى في المدرسة، كل يدخل إلى غرفته يغلق الباب وأنا، أدور مثل قطة وحيدة، أنتظر من يخرج قبل، وجوه وضجر وثلج. لو أتي وحدي. لو أنها من دوبي.

أنام داخل بقعة الضوء وأحلم. وجاك؟

أسبوع لم أره.

أعترف أنني أفقدته، حين يسرح بصري إلى المقعد وأجده فارغاً (كل الأمكنة الفارغة كانت وما زالت تثير في الإحساس بأنه كان هناك شخص ومشى!

هل أحبه؟

حين أفكر، أنتظر من يخرج قبل، زواج وطلاق ثم زواج.

لو أنني وحدي.

أي شيء هو هذا الحب؟

حين يسرح بصري..

أن هناك شخصاً ومشى

* * *

صبي أسمر وفتاة، شعر أشقر وعينان سوداوان، يده على يدي، أصابع داخل أصابع، أعرف أنه يريدني وأنا دائماً إلى جانبه، أسمع صوته، أتأمل وجهه وعينييه وكل انفعالات جسده، أعرف أنه يريدني، حين ترى عيناى عينييه أعرف أنه يريدني، ولكن هل يدري أنني مسلمة وأي يدعى محمداً وأخي لن يكون إلا زياداً أو طارقاً أو محموداً؟

أخذني عند والدته.

هلا -

وعمرتي.

يحدثني جاك كثيراً عنك، أخاف أن يكون مغرماً بك؟ قالتها بالفرنسية. وأرد بنصف ابتسامة. ويجيب جاك:

هلا زعيمتنا في اللغة العربية

والفرنسية؟

قلت:

أنا نتاج المدارس الوطنية.

زمت شفتيها وأشارت:

وهذا الشعر الأشقر كيف؟

كانت المرة الأولى التي أرى فيها «الأشرفية» فيللات وشوارع وصمت. أحببت نظافة الطرقات والهدوء، وتضايقت من كل هذا الصمت، أحسست بالخوف، بأني وحدي أسير أنا وصوت الإسفلت، كأني من بلدٍ آخر، كأني في بلدٍ آخر، بيروت غير التي على شاطئ البحر.

وقلت:

هذا الصمت.

أجاب:

- ألا يعجبك؟

- إنه يخيف.

- كيف؟ لا أفهمك..

- إني ضجة الحياة؟

- أنا أحب الهدوء

- ولكن هذا صمت ثقيل.

- وما الفرق؟

- إنه الموت.

- لا أفهمك، كل من عرفت تمنى غرفة في الأشرفية وأنت!

- كأني في بلدٍ آخر، بيروت غير التي أعرفها!

- إن الأشرفية، لا تختلف عن الحمراء وفردان والروشة.

- كيف؟

- أين تسكنين؟

- في الظريف.

- على الصنائع.

- الصنائع إلى الجانب الآخر، أنا من الظريف، زواريب

وعربات وأولاد في الشوارع.

- هلا. هل أستطيع الذهاب إلى بيتكم؟ أود أن أساعدك في

اللغة الفرنسية.

- حقاً.

- ألا يمانع أهلك؟

- أبداً، نحن نقول «من تعلم لغة قوم أمن شرهم».

- وأنت؟

- أريد أن آمن شر العالم.

* * *

يذهب وبأني، يحمل لي قبضة ياسمين، أحمل له ابتسامة

طويلة، يسألني عن الزواج؟ أسأله عن العالم.

يحدثني عن بيت في المتن وشجر الحور والشتاء من خلف

الزجاج والضباب الناعم.

أسأله عن العالم، عن رغبتني في أن أخرج إلى العالم، كل

العالم.

يمسك يدي.

- والزواج؟

أرفع حاجبي وأصمت.

أحب أن أكون إلى جانبه. يد قوية ومتاسكة تمرجح يدي

وتترثر، وحين تمطر تقف تحت سقوف المخازن، نضحك من المارة

وتتبادل الشد على اليد، يد قوية ومتاسكة، أن أكون إلى جانبه

لأنني أريد أن أكون إلى جانبه.

- والزواج؟

أرد السؤال:

- والزواج؟

- أنا وأنت إلى الأبد. أودعك بقبلة، وأرى عينيك خلف الزجاج تنتظرانتي، زواجاً مارونياً لا رجعة عنه.
- وإذا اختلفنا؟
- عليك أن تكوني امرأة مطيعة.
- وإذا كنت على خطأ؟
- تغفرين.
- وإذا كان الخطأ كبيراً؟
- نصرين.
- وإذا نفذ الصبر؟
- تريدين زواجاً آخر؟
- أريد زواجاً معقولاً..
- نذهب إلى قبرص، زواجاً علمانياً بعيداً عن المسيحية والإسلام وكل الأديان التي أنزلت.
- وحين تحط الطائرة على أرض لبنان يتحول الزواج العلماني إلى زواج طائفي ونكون مثل الذي لم يذهب إلى قبرص ولم يخرج من بيروت.
- كيف؟ تكونين زوجتي والعقد شاهد على ذلك.
- ولحظة يهبط طفلي الأول أقرأ على هويته: المذهب

مسيحي.

- بإمكان الطفل أن يختار ما يريد. المسيحية. الإسلام..
- تريدين أن أترك له دينين ودفعة واحدة؟
- ماذا أفعل؟
- أقول مزاحة:
- لماذا لا تعتنق الإسلام؟
- الإسلام!
- الإسلام.
- كيف؟ إنك تضعين سداً في وجه طموحي.
- كيف؟
- كيف! أنت تعرفين الدولة وفرص العمل و.. ثم كيف تريدينني أن أعتنق الإسلام في الوقت الذي ترفضين أنت فيه اعتناق المسيحية؟
- أنا لا أريدك أن تعتنق الإسلام ولا أود أن أعتنق المسيحية ولا أحب لطفلي أن يختار بينها.
- نتزوج وبعد ذلك.
- يقبل أحدنا الآخر، وبعد ذلك..
- متعصبة.
- أنا لا أحب أن أرمم ورقة من هنا وحجراً من هناك، أريد لطفلي أن ينتمي إلى وطن لا إلى طائفة. الى وطن حقيقي

* * *

يأتي ويذهب، ويحمل لي صمتاً ثقيلاً، أحمل له تساؤلاً، علامة استفهام وسع وجهه.

يحكي عن الغرب المزدهر.
أحكي عن (أي ذر)
بيدي اعجابه بحضارة الرجل الأبيض.
أبدي اعجابي بثورة الزنج والثوار الفلسطينيين.
أعرف أنه يريدني، صرت أعرف كيف يريدني، ظللاً تحت ظله، شعر أشقر يغمره ويمشي، بيت في المتن وشجر الحور والشتاء من خلف الزجاج.
أسأله عن العالم، البلاد الغريبة والبعيدة، يد واحدة ومتأسكة فمرجحها ونقف، أريد أن أكون إلى جانبه، أن يكون إلى جانبي، إلى جانب البلاد إلى.. شعب واحد. حدود واحدة، أي معنى لأي مطر وأنت تنظر من خلف الزجاج؟

* * *

صبي أسمر وقتاة، عينان وشعر على العينين، بعدت الزيارات، قلت. ولم يبق غير شعرة معاوية، نخيلة وواهنة، ذهب كل شيء، قبضة الياسمين والابتسامة الطويلة واليد على اليد.

بيروت ١٩٧٧

دار الآداب نصوص

سلاسل

دار الآداب للصغار

- * غنوا يا أطفال (١٠ اجزاء) للاستاذ سليمان العيسى
- * شعراؤنا يقدمون أنفسهم للاطفال (١٠ اجزاء)
- * سلسلة «صباح» للاستاذ زكريا تامر
- * قصص مختلفة
- * تراثنا بعيون جديدة لمجموعة من الادباء
- * اجمل قصص الاطفال في العالم

دار الآداب شارع البازمجي، بناية مركز الكتاب، ص.ب. ٤١٢٣ تلفون ٤٢٢٤٨٢٤
٣٠٢٩٨٦